



26 نيسان يوم أغرّ في تاريخ طرابلس الفيحاء

بقلم الدكتور عمر تدمري

26 نيسان من كل عام، هو يوم تحرير مدينة طرابلس من الغزاة الإفرنج واستردادها، وإعادة بناء المدينة المملوكية بأثارها الإسلامية التي لا يزال أكثرها قائماً حتى الآن، عنواناً لحضارة الأمة الإسلامية وتراثها العمراني العريق. وبهذه المناسبة المجيدة، يجدر بأبناء الفيحاء ان يتوقفوا قليلاً أمام هذا الحدث التاريخي الجليل في مسيرة مدينتهم، ويستقرئوا وقائع النضال والصمود والجهاد التي خاضها أجدادهم، ورابطوا وجاهدوا في الله حق جهاده، ليرفعوا كلمة الحق والدين، ويزودوا عن ديارهم ضد المستعمر الأجنبي الغاصب.

لقد جاءت الحملات - المعروفة في الكتب بالحملات الصليبية - من كافة أنحاء أوروبا والعالم الغربي في القرن الخامس الهجري - الحادي عشر الميلادي، تحت ستار من الدين وحماية الأماكن المقدسة، ولكنها في حقيقة الأمر كانت تخفي أطباع ملوك الإفرنج في استعمار بلاد المشرق العربي الإسلامي، والسيطرة على خيراته، والتحكم في موقعه الإستراتيجي، واستغل الإفرنج إنشقاق العالم الإسلامي في ذلك الوقت بين السلاجقة الأتراك في العراق، والفاطميين في مصر، وقيام إمارات صغيرة في أنحاء بلاد الشام،

فقام ملوك أوروبا كلهم بحملاتهم الصليبية، براً وبحراً، واحتلوا سواحل بلاد الشام كلها، وأقاموا إمارات لاتينية تخضع لهم من إنطاكية والرها شمالاً، حتى بيت المقدس وأراضي مصر والأردن جنوباً، أي ما يزيد على مساحة فلسطين المحتلة الآن من الصهاينة عشرات المرات. وكانت طرابلس في ظل أمرائها من بني عمار قاعدة إمارة مستقلة على هذا الساحل تمتد من نواحي اللاذقية شمالاً، حتى جونية وجسر المعاملتين، جنوباً، وتنعم بخيرات اقتصادية، وازدهار في التجارة والصناعة والزراعة وال عمران، وحياة ثقافية وفكرية وعلمية قلّ نظيرها في التاريخ، حتى أشاد المؤرخون الثقات بعظيم ثروتها فقالوا إنها من أعظم البلاد تجارة وأغناها ثروة، وهي تفخر بدار العلم ومكتبتها الكبرى التي كانت تحتوي على ثلاثة ملايين مخطوطة، وهي تفوق مكتبات الخلفاء في بغداد والقاهرة وقرطبة مجتمعة. ولقد وقفت طرابلس صامدة في وجه الغزاة عشر سنوات (492 - 502هـ/1099-1109م) وعانى أهلها من الحصار الطويل حتى افتقر الأغنياء، وأكل الناس الجيف والكلاب، وتخاذل الفاطميون عن نصرتهم، وتجمعت أساطيل الفرنج لحصار المدينة من البحر، وضيقوا الخناق عليها من البر، ومنعوا وصول الغذاء والمساعدة من البلاد القريبة، حتى سقطت المدينة بأيديهم، فدمروا معالمها، وأحرقوا مكتبتها بأمر من قائدهم (برتراند) فضاع على الإنسانية كنزٌ هائلٌ من التراث والعلوم المدونة في المخطوطات النادرة المكتوبة بماء الذهب وبخطوط مؤلفيها، ورزحت طرابلس تحت حكم الغزاة الأوروبيون أكثر من 180 عاماً، وعمل الغزاة على تغيير معالمها العربية والإسلامية، فنشروا نظمهم وقوانينهم، وعملوا على فرض لغاتهم الغربية وعاداتهم، وكذلك فعلوا في كل المدن والبلاد التي احتلوها في الشرق العربي الإسلامي.

ولأهمية موقع طرابلس الإستراتيجي، ودورها التاريخي على ساحل الشام، فقد اتخذ منها الصليبيون عاصمة لإحدى إماراتهم اللاتينية بعد إمارة إنطاكية وإمارة الرها، ومملكة بيت المقدس.

وإذا كان قد قُدِّر لإمارة الرّها أن تتحرر على يد الملك الشهيد نور الدين زنكي، وأن ينتصر الناصر صلاح الدين الأيوبي على جيوش ملوك أوروبا في موقعة حطين ويحرر بيت المقدس، وأن يقوم الملك الظاهر بيبرس باسترداد انطاكية وفتح البلاد التابعة لها، فإن طرابلس ظلت عاصمة أمام هجمات المسلمين، فقاومت عماد الدين زنكي، وابنه الشهيد نور الدين، والناصر صلاح الدين، وأخاه الملك العادل الأيوبي، والظاهر بيبرس، حتى قيض الله لها السلطان المنصور قلاوون، سلطان دولة المماليك، فكان موعد تحريرها معه وعلى يديه، حيث خرج بجيشه من القاهرة إلى دمشق، وبها تجمعت الجيوش من مختلف أنحاء بلاد الشام، وانضم الي جيشه النظامي آلاف المتطوعة المغاربة النازحين من الأندلس. خرج من دمشق الى طرابلس في فصل الشتاء، والثلوج تكسو الجبال المشرفة على المدينة، ففاجأ الصليبيين ورابط عند مرتفع القبة، التي عُرفت بقبة النصر منذ ذلك التاريخ تمجيذاً للفتح العظيم، وضرب حصاره على الفرنج مدة 33 يوماً، وقذف الفرنج بالمنجنيقات، ونقب الجدر والأسوار واقتحمها تحت غطاء من عشرات آلاف السهام والدبابات الخشبية الثقيلة والأنابيب التي تقذف النار الملتهبة، الى أن فرّ بعض القادة الفرنج في البحر إلى الجزر أمام الميناء، وقُتل بعضهم، وأسر آخرون، وخاض المماليك عباب البحر بخيولهم وبعضهم سباحةً إلى جزيرة البقر، حيث فرّ الصليبيون إليها، وتمّ دحر الفرنج في يوم 26 نيسان سنة 1289، وسقطت في هذا اليوم قاعدة الإمارة الفرنجية التي أُقيمت على أرض مدينتنا العربية الإسلامية بغياً وعدواناً، وعادت طرابلس منذ ذلك التاريخ ثغراً

ورباطاً للعرب والمسلمين، وكان يوم 26 نيسان يوم تحرير طرابلس من الاحتلال الفرنسي الأوروبي، ويوم تأسيس المدينة المملوكية التي تفخر بمساجدها ومدارسها وحمّاماتها وخاناتها وأبراجها وسُبل مياهها وقصورها وأسواقها وساحاتها ونقوشها وزخارفها. وقد خفقت قلوب المسلمين في مشارق الأرض ومغربها فرحاً وابتهاحاً بفتح طرابلس وعودتها إلى المسلمين، فأقيمت الاحتفالات والزينات في كل بلاد المسلمين.

وبفتح طرابلس تيسّر فتح آخر معاقل الغزاة الفرنج في عكا وصور وصيدا وبيروت، وتم طردهم من ديار الشام بعد سنتين 1291م.

وكان من حق الفاتح العظيم القائد المجاهد المنصور قلاوون أن يخدّ اسمه على أهم معالم طرابلس المملوكية، فكان أن أطلق ابنه على الجامع الكبير الذي أمر ببناؤه، لقب أبيه الذي اشتهر به، وأصبح (الجامع المنصوري الكبير) وتمجيداً لجهاده ودوره في تحرير طرابلس. وحرّيّ بنا ونحن نستقرئ هذا التاريخ المجيد ونستعيد ذكرى هذه الموقعة الحاسمة، أن نتذكّرُها ونرّسخ قيمها في نفوس أبنائنا وأجيالنا، ليقروا تاريخ مدينتهم العريق بالنضال والجهاد والحضارة.

وكما تحررت طرابلس الحبيبة من الغزاة بعد أكثر من 180 عاماً من الاحتلال الآثم، وكما تطهّرت الرّها وبيت المقدس من الفرنج بعد احتلال دام نحو مئتي عام. فإن الله تعالى سينصر جنده المجاهدين أبطال الحجارة والمقاومة الإسلامية، ويحقق الله على أيديهم النصر بتحرير فلسطين وتطهير بيت المقدس والحرم القدسي الشريف، وليس ذلك على الله بعزيز "ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله ألا إن نصر الله قريب".

إن أهم درس يمكن أن يستفاد من الذكرى - الحدث هو أن الحق في النهاية لا بد أن ينتصر، وأن فترات القهر في حياة الأمم والشعوب لا بد أن تنتهي، وأن اليأس ينبغي أن لا يدخل القلوب المؤمنة. فهذا هو انتفاضة الأقصى في فلسطين المحتلة تقضّ مضاجع الصهاينة وأعوانهم، ولا بد أن تعود فلسطين عربية كما أعادها صلاح الدين، وكما تحررت طرابلس فستحرر القدس بإذن الله ولو بعد حين.